روز اليوسف

1958 - 1897

عندما قمت بزيارتي الأولى إلى مصر في عام 1954 إلى مجلة "روز اليوسف" وتعرّفت إلى عدد من الكتاب والفنانين الذين ساهموا في نهضتها الجديدة لم أكن أعرف أن صاحبة المجلة ومؤسستها هي فاطمة اليوسف اللبنانية الآتية إلى مصر من مدينة طرابلس، ثاني المدن اللبنانية بعد العاصمة بيروت. ولم أكن أعرف أن الروائي إحسان عبد القدوس الذي تعرفت إليه في عام 1964 في الجزائر هو ابن روز اليوسف. لم أسأل يومذاك عن أصل الاسم الذي اتخذته المجلة، ولم يتطوع أحد من أصدقائي من كتابها إلى إخباري بذلك. لكنني أعترف بأنني دهشت عندما دخلت إلى مكاتبها بذلك العدد الرائع من الكتاب والفنانين الذين سرعان ما صاروا منذ اللحظة الأولى بالنسبة إلى أصدقاء فكر وموقف ومبدأ. أذكر منهم باعتزاز عبد الرحمن الشرقاوي وعبد الغني أبو العينين وصلاح حافظ وأحمد بهاء الدين وحسن فؤاد وصلاح جاهين وجمال كامل وعبد المنعم القصاص. لكن مرور الأيام وتعدد زياراتي إلى مصر قادتني بالتدريج إلى معرفة القصة الكاملة لتلك الشخصية الفذة التي حملت اسمين في ظروف تاريخية صعبة، فاطمة اليوسف بالولادة وروز اليوسف في زمن الضياع. وإذ اختارت اسمها الثاني ليكون اسماً لمجلتها الراقية فإنها استعادت اسمها الأصلي عندما دخلت معترك الحياة في التمثيل أولاً ثم في الصحافة السياسية في المرحلة التالية التي استمرت حتى آخر حياتها. فاطمة اليوسف هي ظاهرة فريدة من نوعها في عالم الصحافة والسياسة والفن. فمن هي ومن أين جاءت وما هي مسيرة حياتها في مجالات الإبداع المتعددة ميادينه التي مارستها؟

ولدت فاطمة اليوسف في عام 1897 في مدينة طرابلس اللبنانية. والدها هو محيي الدين اليوسف التركى الأصل. كان يعمل في التجارة. اضطر للسفر لأسباب غامضة ولم يعرف مصيره. وقبل أن يسافر ترك ابنته الصغيرة وهي في السابعة من عمرها برعاية أسرة مسيحية. وكانت أمها قد توفيت عند ولادتها. وعندما انقطعت أخبار الأب تبنت العائلة الطفلة الصغيرة وأعطتها اسم روز. وأخفت عنها أصول عائلتها وحقيقة أوضاعها. غير أنها سرعان ما علمت الحقيقة كاملة عندما أكملت عامها العاشر. إذ قررت مربيتها أن تطلعها على حقيقة أصلها العائلي، وأن تخبرها بأنها مسلمة وليست مسيحية، وأن اسمها الأصلي هو فاطمة وليس روز. ولم تجد الأسرة التي تولّت تربيتها وتنشئتها حرجاً في الموافقة على عرض تقدم به أحد العازمين على الهجرة إلى البرازيل في اصطحاب الطفلة لتؤنسه في غربته. لكن القدر أراد لها أن تهبط في الاسكندرية وألا تواصل رحلتها إلى البرازيل. فعندما رست السفينة فى الإسكندرية غافلت روز صديق العائلة وهبطت في المدينة المصرية. ولم يلبث أن اكتشفها الفنان عزيز عيد بالصدفة وقادها إلى دنيا الفن. وبدأت معه العمل أولاً ككومبارس. وإذ اكتشف عزيز عيد مواهبها فقد اختارها لدور سيدة عجوز، الدور الذي رفضته ممثلات الفرقة. وقد أدت روز دورها بعبقرية ولاقت استحسانا كبيرا من الجمهور. ساعدها في النجاح صوتها المضطرب الخجول الذي كان رفيقها في بدايات حياتها. لكنها تخلت عن خجلها عندما مارست العمل الصحفي والسياسي. إذ أصبحت ذات موقف جريء ومشاكس لايقبل المهادنة. وهكذا بدأت روز تكبر في عملها المسرحي في فرقة عزيز عيد

وعكاشة. وأدت أدواراً كبيرة في أعمال مسرحية متعددة. وقامت في الآن ذاته بأدوار في مقطوعات موسيقية مع محمد عبد القدوس الذي أصبح فيما بعد زوجها. وتعرفت بواسطته على المخرج المسرحي اسكندر فرح الذي علمها التمثيل وضمها إلى أسرته.

أمضت فاطمة اليوسف الفترة الأولى من نشاطها المسرحي في الإسكندرية. ثم انتقلت بعد فترة إلى القاهرة لتنضم إلى فرقة جورج أبيض التي كانت قد تأسست في عام 1912. وعملت بعد ذلك مع يوسف وهبي بعد أن أسس فرقة رمسيس في عام 1923 ولعبت دور البطلة في الفرقة. وبلغت ذروة مجدها عندما مثلت دور مارجريت جوتيه في رواية "غادة الكاميليا" ونالت لقب "سارة برنار الشرق".

لكن فاطمة تركت فرقة رمسيس بعد خلاف مع يوسف وهبي. واعتزلت التمثيل واتجهت نحو الصحافة. فأصدرت في عام 1925 مجلة فنية سمتها "روز اليوسف". لكن المجلة لم تلاق النجاح الذي كانت تنتظره فاطمة. وبعد عشرة أعوام من إنشاء المجلة وفشلها أصدرت صحيفة "روز اليوسف" السياسية التي كانت من القوة والانتشار بحيث هددت مكانة صحف كثيرة. وتقول الكاتبة كوثر زكي في مقال نشرته في "الأهرام" حول ولادة فكرة المجلة عند فاطمة اليوسف: "ولدت فكرة إصدار المجلة في محل "حلواني كساب" حيث كانت تجلس السيدة فاطمة اليوسف مع مجموعة من أصدقائها عندما جاء بائع الصحف بالعدد الجديد من مجلة "الحاوي". فأبدت الفنانة الكبيرة استياءها من الحملات الجائرة التي تشنها هذه المجلة ضد الفن والفنانين ومن الأخبار المسيئة الكاذبة. وهنا نبتت

في ذهنها فكرة إنشاء مجلة تحقق هذا الهدف. ولدت المجلة عبر تعاون وثيق بين السيدة فاطمة اليوسف والشاب الموهوب الصحفي محمد التابعي صاحب الأسلوب الفريد في تاريخ الصحافة المصرية. صدر العدد الأول من مجلة "روز اليوسف" يوم الأثنين من أكتوبر عام 1925. وكتبت السيدة الرائدة إفتتاحية أنهتها بكلمات دالة تعبّر عن الرسالة التي تؤمن بها: "..وإذا وفقت بهذه الصحيفة أن أكون قوة مهذبة وأن أدخل اسم المسرح إلى كل أذن وأن أبعث اسمه في كل دار فقد أديت واجباً وذا حسبي وسأسعى جهدي".

وتروي الكاتبة في مقالها أن إبراهيم عبد القادر المازني كتب في العدد الأول من المجلة مقالاً يستغرب إقدام الفنانة فاطمة اليوسف على إصدار المجلة ويسخر من التجربة ويعتبرها نزوة. فردت عليه فاطمة قائلة: إن كل عمل مجيد يكون في أوله نزوة طارقة ثم يستحيل إلى فكرة. فإذا رسخت أصبحت يقيناً فجنوناً. كذلك كان حالي مع الفن الجميل. كنت لم أتجاوز الرابعة عشرة من عمري حين خطر لي أن أمثل. وكانت تربطني صلات مع أصحاب تياترو شارع عبد العزيز. فذهبت يومها إلى هناك وانتقيت فستاناً من المخمل الأسود الموشى بالقصب. ثم رجعت إلى منزلي الصغير بالفجالة وهناك أسدلت شعري على أكتافي وخططت وجهي بألوان فاقعة بعد أن ارتديت هذا الفستان الذي كانت تلبسه سابقاً ممثلة دور "ماري تيودور". وكان له ذيل طويل يحسن كنس المسرح ثم خرجت إلى الطريق أتهادى في جلال ملكات الخيال. واجتزت شارع الفجالة فكلوت بيك فميدان العتبة الخضراء

حتى التياترو. تبعني نفر من الناس. لم أنتبه إلى كل هذا إذ كان كل ما يغمر رأسي أني أسير في ثياب الملكة ماري تيودور. أليست هذه نزوة يا أستاذي العزيز؟ هي كذلك".

أثار نجاح المجلة بعد صدورها غيض السلطات وأصحاب المجلات الأخرى. وتمت محاربتها بإغراء باعة الصحف برفض بيعها. وأدى ذلك إلى تراكم الديون عليها. وتعرضت بسبب ذلك لأزمة مالية خانقة. لكنها صمدت بوجه الأعاصير. ساعدها في ذلك الموقف السياسي الذي جعلته الأساس في سياسة المجلة. وتابعت بحزم وبشغف عملها الرائد. ولم تلبث أن صارت مجلتها المجلة الأولى في البلاد. ولعبت دوراً بارزاً في الحركة الثقافية. ومن بين ما قامت به في هذا الميدان إصدار الكتاب الذهبي وسلسلة كتب فكرية وسياسية. يضاف إلى ذلك أنها أصدرت مجلة "صباح الخير" بعد بضعة أعوام من صدور مجلة "روز اليوسف".

تزوجت فاطمة اليوسف من ثلاثة رجال هم محمد عبد القدوس، وأنجبت منه إحسان عبد القدوس الأديب المصري المعروف. ثم تزوجت من المسرحي زكي طليمات، ثم من المحامي قاسم أمين حفيد قاسم أمين صاحب كتاب "تحرير المرأة". ومن طرائف ما قيل فيها ما كتبه مصطفى أمين في كتابه "مسائل شخصية": "إن أغرب ما في قصة هذه المعجزة أنها وهي صاحبة أكبر مجلة سياسية في البلاد العربية لم تكن تعرف كيف تكتب. وكان خطها أشبه بخط طفل صغير. ومع ذلك كانت قارئة ممتازة وذواقة رائعة للأدب

والشعر. تقول روز في مجلتها كلنا سنموت، ولكن هناك فرق بين شخص يموت وينتهي وشخص مثلي يموت ولكن يظل حيا بسيرته وتاريخه".

لكن سيرة فاطمة اليوسف لا تختصر بهذين الدورين الكبيرين اللذين صنعا صورتها في الحياة المصرية، الممثلة في شبابها والصحافية في المراحل الأساسية من حياتها. فهي كانت تتبنى مواقف سياسية وطنية صادقة، وكانت تعبّر عن تلك المواقف بجرأة خارقة قادتها إلى دفع أثمان باهظة. لكنها تحملت تبعات تلك المواقف من دون أن تتراجع خطوة واحدة إلى الوراء. ومعروف أنها كانت في فترة من حياتها لصيقة بحزب الوفد إلى الحد الذي جعل الكثيرين يطلقون على مجلتها صفة المجلة الوفدية. إلا أنها اختلفت مع مصطفى النحاس عندما تخلى عن المطالبة بالعودة إلى دستور 1913، وطالبته بإصرار أن يجعل المطالبة بالدستور مهمته الأساسية. فهاجمها حزب الوفد وشنّ النحاس حملة ظالمة ضدها قادتها إلى الإفلاس. لكنها لم تخضع وقادت معركتها ضد الوفد وضد سياساته. وتحملت تبعات ذلك في حياتها المادية، وفي شروط الاستمرار في إصدار المجلة. وانتصرت رغم المعاناة. وكان من نتائج بعض مواقفها دخول ابنها إحسان ظلماً إلى السجن.

أصدرت فاطمة اليوسف في عام 1956 قبيل رحيلها مذكراتها التي تروي فيها قصة حياتها وقصة المسرح. وحرصت في روايتها لأحداث حياتها على أن ترسم للتاريخ لوحة صادقة عن حقبة جميلة من حياة المسرح المصري وأبطاله ودورها فيه. كما حرصت على

أن تقدم الكثير مما توفر لها من معلومات عن حقبة سياسية بكاملها كانت لها فيها شخصيتها المميزة. كتبت عن الصحافة ودورها، وعن الحياة السياسية بتفاصيلها الكبيرة والصغيرة. لذلك فإن مذكراتها تشكل مصدراً مهماً لمعرفة تلك الحقبة الممتدة بين ثلاثينات القرن الماضي وخمسيناته، في العهدين الملكي والناصري. ومن طرائف ما جاء في مذكراتها إشاراتها الصريحة إلى بعض مواقفها المزاجية، بما في ذلك موقفها من ابنها إحسان عبد القدوس، الذي عاقبته وقاطعته لفترة من الزمن.

لن أدخل في تفاصيل تلك السيرة الجميلة لفاطمة اليوسف. لكنني أدعو القارئ للعودة إلى مذكراتها التي لا تختصر بكلمات. ولا أجد أفضل من المقدمة التي وضعها إحسان عبد القدوس لمذكرات والدته للتعريف ببعض ما اتصفت به شخصيتها. وأقتطف من هذه المقدمة فقراتها الأولى: "هذه الذكريات ناقصة... ناقصة إلى حد كبير! إن والدتي السيدة فاطمة اليوسف لم تحدثنا في هذه الذكريات عن المشكلة الكبرى التي استطاعت وحدها أن تحلها، والتي لا يزال المجتمع المصري كله حائراً أمامها. كيف استطاعت أن تجمع بين جهادها الشاق المضني الذي بدأته وهي في السابعة من عمرها وبين واجبها كزوجة وأم؟ أنا نفسي لا أدري! لا أدري كيف استطاعت أن تحملني تسعة شهور وهي واقفة على خشبة المسرح تعتصر الفن من دمها وأعصابها لتكون يومها أعظم ممثلة في الشرق. ولا أدري كيف استطاعت أن تطرد عني الموت الذي طاف بي مرات خلال طفولتي وصباي، في حين أنها كانت دائماً بعيدة عني تسعى في طريق مجدها. ولا أدري

كيف استطاعت أن تنشئني هذه النشأة، وأن تغرس فيّ هذه المبادئ وهذا العناد، وأن تقودني كطفل وكشاب في مدارج النجاح، في حين أني لم ألتق بها أبداً إلا وفي رأسها مشروع وبين يديها عمل. كيف استطاعت أن تجمع في شخصها كل هذا. وإذا كانت قد استطاعته، فكيف تستطيع أية سيدة تريد أن تسعى سعيها. إنها لم تكن غنية يوم ولدتني ويوم نشأت في رعايتها، ولا كان أبي غنياً.. فلم يكن لنا قدرة على استئجار مربية لتعهد بي إليها، ولم تكن الحياة قد سهّلت إلى هذا الحد الذي نراه الآن لتيسّر تربية الأطفال. إنما هي التي صنعتني بيديها. هي التي أرضعتني. وهي التي أعدت طعامي. وهي التي وضعتني في فراشي. وهي التي علمتني كيف أخطو، ولقنتني كيف أنطق. صنعتيني بيديها، كما صنعت مجدها بيديها. كل يوم من أيام هذا المجد وكل حرف فيه وكل خطوة من خطواتها.. هي وحدها صاحبة الفضل فيه. وليس لأحد فضل عليها. هي التي التقطت دروس الفن وجعلت من نفسها "سارة برنارد الشرق" كما أطلق عليها نقاد ذلك الجيل. هي التي دخلت ميدان الصحافة وفي يديها خمسة جنيهات وأنشأت مجلة تحمل اسماً يكاد يكون اسماً أجنبياً – وهي الاسم الذي اشتهرت به على المسرح– فاستطاعت أن تجعل من هذه المجلة أقوى المجلات نفوذاُ في الشرق، وأن ترسم بها مستقبل مصر. واستطاعت أن تجعل من هذا الاسم الذي يكاد أن يكون أجنبياً علماً يضم تحته كل الكتاب وأنضج الآراء، ولا يثير عجباً في مصر، كما لا تثير الأهرام أو أبو الهول عجباً بين بني مصر. وهي التي لقنت نفسها أصول الوطنية والمبادئ السياسية إلى أن استطاعت أن تملي أدق الآراء، وأن

تتنبأ أصدق التنبوءات... وفي تاريخ "روز اليوسف" الطويل أي منذ ثمانية وعشرين عاماً إلى اليوم، لم يسقط رأي من آرائها، ولم تخط مصر خطوة من تاريخها إلا وكانت هي الداعية لها. وهي السيدة التي لا تحمل شهادة مدرسية ولا مؤهلاً علمياً.. هي التي أخرجت جيلاً كاملاً من الكتاب السياسيين ومن الصحفيين.. هي التي أرشدت أقلامهم، وهي التي وجهتهم، وهي التي بثت الروح فيهم، وهي التي انتقتهم ورشحتهم لمستقبلهم.. ولا تزال إلى اليوم تخرج منها فوجاً بعد فوج. وهي السيدة اليتيمة التي واجهت مسؤوليات الحياة وهي في السابعة من عمرها.. هي التي استطاعت يوماً أن تتحدى كل سلطات الدولة.. الانكليز والملك والأحزاب كلها وتألّبوا جميعاً عليها يحاولون هدمها ويحاولون القضاء على هذه الصفحات الثائرة التي تحمل اسمها.. ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن يجعلوها فقيرة أحياناً، وأن يسجنوها حيناً، وأن يصادروها عشرات المرات، وأن يحاكموها مئات المرات وأن.. وأن.. لكن الصفحات الثائرة ظلت تصدر دائماً ولم يستطع أحد منهم أن يقضي عليها، ولم يستطع أحد منهم يحني هذا الرأس العنيد القوي، ولم يستطع أحد منهم أن يكون أقوى من هذه الوحيدة اليتيمة.. السيدة؟ كيف حدث هذا؟ أنا نفسي لا أدري".